أقوم، قال لا تلك القعدة ليست من سنّة الصلاة. وقال ابن أبى رزمة عن ابن المبارك قلت يقول سبحان ربى العظيم ثلاث مرات، سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات، قال نعم، قلت فإنْ سَهَا يسبح فى السهو عشرا، قال لا، إنما هى ثلثمائة تسبيحة. وأحب أن تكون السورة التى يقرأها فى صلاة التسبيح مع الحمد فوق العشرين آية، فقد روينا فى حديث عبد الله بن جعفر الذى رواه اسماعيل بن رافع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى السورة التى بعد أم القرآن عشرين آية فصاعدا. كذلك أحبُ زيادة ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ـ لما ذكرناه فى الخبر الآخر، فإنْ قرأ مع فاتحة الكتاب فى كل ركعة عشر مرات ـ قل هو الله أحد ـ فقد ضاعف العدد واستكمل الأجر.

الفصل السادس عشر

فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة ووصف التالين للقرآن حق تلاوته بقيام الشهادة

استحبُ للمريد أن يختم القرآن فى كل أسبوع ختمتين، ختمة بالنهار وختمة بالليل، ويجعل ختمة النهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما، ويختم ختمة الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما، ليستقبل بختمته أول النهار وأوّل الليل، فإن الملائكة تصلى عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح، وتصلّى عليه إن كان ختمه نهارا حتى يُمسى، فهذان الوقتان يستوعبان كلية الليل والنهار. وفى الخبر لم يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر أن يقرأ القرآن فى كل سبع. وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة. وروينا عن يحيى بن الحارث الدينارى عن القاسم بن عبد الرحمن قال وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صاد، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس. وكذلك كان زيد بن ثابت وأبى يختمان القرآن فى كل سبع. وروينا عن ابن مسعود أنه سبّع القرآن فى سبع ليال فكان يقرأ فى كل ليلة بسُبعه، إلاّ أن تأليفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره لأن الاعتبار لا يتبين به، وجماعة يُذكر عنهم ختم القرآن فى كل يوم وليلة، وقد كَرِهت طائفة ختمه فى أقل من ثلاث، والتوسط من ذلك ماذكرناه وهو أن يختم فى كل ثلاثة أيام.

ذكر أحزاب القرآن وكيف حزّبه الصحابة رضى الله عنهم

إن قرأ العبد القرآن أحزابا، فى كل يوم وليلة حزبا، فحسن وهو سُنّة، وذلك أشد لمواطأة القلب وأقوم للترتيب وأدنى إلى الفهم، وإنْ أحَبّ قرأ فى كل ركعة ثُلث عُشر القرآن أونصف ذلك، يكون الجزء من الأجزاء الثلاثين فى كل ركعة أو ركعتين، فإن قرأ فى كل ورد حزباً أو حزبين أو دون ذلك فحسن.

وأحزاب القرآن سبعة، فالحزب الأول ثلاث سور، والحزب الثانى خمس سور، والحزب الثالث سبع سور، والرابع تسع سور، والخامس إحدى عشرة سورة، والسادس ثلاث عشرة سورة، والمفصل من ق، فهذه كانت أحزاب القرآن، ولذلك حزّبه الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، وكانوا يقرؤنه كذلك. وفى خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنه حزّبه على عدد هذه الآى، إذ عددها ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية، وقد اعتبرت ذلك فى كل حزب فرأيته يتقارب، وهذا قبل أن تعمل الأخماس والعواشر والأجزاء، فما سوى هذا محدث. ويقال إن الحجاج جمع قرّاء البصرة والكوفة، منهم عاصم الجحدرى ومطر الورّاق وشهاب بن شريفة فأمرهم بذلك. وقد كان الحسن وابن سيرين ينكران هذه الأخماس والعواشر والأجزاء. وروى عن الشعبى وإبراهيم كراهية النقط بالحمرة وأخذ الأجر على ذلك. وكانوا يقولون جرّدوا القرآن. وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير كان القرآن مجرداً فى المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء، وقالوا لابأس به فإنه نور له، ثم أحدثوا بعده نقطا كباراً عند منتهى الآى فقالوا لابأس به، يُعرف به رأس الآى، ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتيم والفواتح وقالوا لابأس به لأنها علامة تُعرف بها.

واعلم أنه لايجدُ فهمَ القرآن الفهمَ الذى يكشف بمشاهدته ويظهر من الملكوت قَدْرَه، عبدٌ فيه إحدى هذه الخصال أدنى بدعة، أو مصرٌ على ذنب، أو عبدٌ فى قلبه كِبْر أو مقارب لهوى قد استكّن فى قلبه، أو محب للدنيا، أو عبدٌ غير متحقق بالإيمان أو ضعيف اليقين، ولا من هو واقف مع مقراه، ولا عبدٌ مهتم يتبع حروفه واختياره، ولا ناظر إلى قول مفسر، ساكن إلى علمه الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، ولا قاض بمذاهب أهل العربية واللغة فى باطن الخطاب، وهؤلاء كلهم محجوبون بعقولهم مردودون إلى مايُقَدّر فى علومهم، موقوفون مع ماتقرر فى عقولهم، مزيدهم على مقدار علومهم وغرائز عقولهم، وهؤلاء مشركون بعقولهم ومعلومهم عند الموحدين،

فهذا داخل فى الشرك الخفى الذى أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء. قال محمد بن على بن سنانة إذ معقوله وعلمه عن عقل غير كامل، لأن العقل الكامل ماعَقَلَ عن الله عز وجل، وفهم حكمه وكلامه، ويعقل به كلامه. وقد قال الرسول صلوات الله عليه فى صفة كمال العقل ـ العاقل من عقل عن الله سبحانه وتعالى أمره ونهيه.

وفى الخبر أكثر منافقى أمتى قرّاؤها ـ فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى والنظر إلى غيره، لا نفاق الشِرْك والإنكار لقدرة الله عز وجل، فهو لا ينتقل عن التوحيد ولكنه لاينتقل إلى مقام المزيد، فإذا كان العبد ملقيا السمع بين يدّى سميعه، مُصغيا إلى سر كلامه، شهيد القلب لمعانى صفات شهيده، ناظراً إلى قدرته، تاركاً لمعقوله ومعهود علمه، منبرئاً من حوله وقوته، معظماً للمتكلم، واقفاً على حضوره، مفتقراً إلى الفهم بحالٍ مستقيم وقلب سليم وصفاء يقين وقوة علم وتمكين، سمع فصل الخطاب وشهد علم غيب الجواب. وأفضل القراءة الترتيل، لأنه يجمع الأمر والندب، وفيه التدبر والتذكر.

وروى عن علىّ رضى الله عنه ـ لاخير في عبادة لافقه فيها، ولا فى قراءة لاتدبّر فيها. وعن ابن عباس لأنْ اقرأ البقرة وآل عمران، أرتلهما وأتدبرهما، أحب إلى من أن اقرأ القرآن كله هذرمةً. وروى عنه أيضاً لأنْ أقرأ إذا زلزلت والقارعة، أتدبرهما أحبّ إلىّ من أنْ أقرأ البقرة وآل عمران تهَذُّراً. وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى صلاة فكان قيامهما واحد إلاّ أن أحدهما قرأ البقرة والآخر قرأ القرآن كله، فقال هما فى الآخرة سواء، لأن قيامهما كان واحدا.

وأفضل الترتيل والتدبر فى القرآن ماكان فى صلاة. ويقال إن التفكر في الصلاة أفضل منه فى غير الصلاة لأنهما عملان، وهذا هو التفكر فى معانى التدبر، والفهم بخطاب الوعد والوعيد والزجر والأمر، تعظيماً للمتوعد وإجلالاً للآمر. وسئل النبى صلى الله عليه وسلم أى الصلاة أفضل، فقال طول القنوت. وروى فى خبر آخر مَنْ سجد لله عز وجل سجدة رفعه الله عز وجل بها درجة. وأنه قال لأبى فاطمة خادمه وقد سأله مرافقته فى الجنة فقال ـ أعِنّى بكثرة السجود. وروينا عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قال إنه كثرة السجود بالنهار، وإنه طول القيام بالليل. ويقال إن العبد يحشر عند الموت من قبره على هيئته فى صلاته من السكون والطمأنينة، وتكون راحته في الموقف على قدر راحته وتنعمه بالصلاة. وروينا معنى هذا عن أبى هريرة، وعلى هذا المعنى تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال ـ أرحنا بالصلاة، أى

روّحنا إليها، نعّمنا بها، من الروْح والراحة إليها. ويقال أرحنا بالشئ أى روّحنا، وأرحنا منه أى أسقطه عنا وخفف عنا منه، ولم يقل أرِحْنا منها، كيف وقرة عينه فيها. وقال بعضهم إنى لأفتتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر وماقضيت منها وطرى. وقال سليمان بن أبى سليمان الدارانى أنه وعد ابن ثوبان أخاً له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر، فلقيه أخوه من الغد قال وعدتنى أن تفطر عندى فأخلفت، فقال لولا ميعادك ما أخبرتك بالذى حبسنى عنك، إنى لما صلّيت العتمة قلت أوتر قبل أن أجيئك لأنى لا آمن مايحدث من الموت، فلما كنت فى الدعاء من الوتر رُفِعتْ لى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة، فمازلت أنظر إليها حتى أصبحت. وقال عز وجل كُتِبَ فى قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه، قيل القرآن قوّى إيمانهم بعلم القرآن، فالقرآن روح الإيمان، وتقويتهم استعمالهم به. وفى التفسير يايحيى خذ الكتاب بقوة، قيل بجد واجتهاد، ومثله خذوا ما آتيناكم بقوّة، قيل بعمل به، وقيل لبعضهم إذا قرأت القرآن تحدّث نفسك بشئ؟ فقال أوشئٌ أحبّ إلىّ من القرآن أُحدّث نفسى به؟ وهذه صفة قوى مكين.

ويقال إن فى القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات، فالميمات ميادين القرآن، والراآت بساتين القرآن، والحاآت مقاصيره، والمسبحات عرائس القرآن، والحواميم ديباج القرآن، والمفصّل رياضُه، والخانات ماسوى ذلك، فإذا جال المريد فى الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديباج، وتنزّه فى الرياض، وسكن غرف الخانات، اقتطعه وأوقفه مايراه، وشغله الشاهد به عما سواه. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فردها عشرين مرة، وكان له صلى الله عليه وسلم فى كل ردة فَهْم، ومِنْ كل كلمة عِلْم، فينبغى أن يكون قلب التالى بوصف كل كلمة يتلوها مشاهداً لمعناها إلى مايفتح الله عز وجل له من المزيد عليها من مجاورتها، ومع مايفهم بها من غيرها ويشهد غيرها منها، فقد كان بعضهم يقول كل آية لا أتفهمها ولا يكون قلبى فيها لم أعدّ لها ثوابا. وكان بعض السلف إذا قرأ السورة ولم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، فإذا مرّ بتسبيح وتكبير سبّح وكبر، وإنْ مَرّ بدعاء واستغفار دعا واستغفر، وإنْ مَرّ بمخوف ومرجو استعاذ وسأل، فذلك معنى قوله عز وجل يتلونه حق تلاوته. وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلاوته، وعلى هذا المعنى ماروى فى الخبر مَنْ أراد أن يقرأ القرآن غَضّـا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد، أى على معنى تلاوته، لأنه كان يقرأ بقلب شهيد وسمع

عتيد وبصر حديد، فكان يتلو القرآن على معانى الكلام وعلى شهادة وصف المتكلم، الوعيد منه بالتحزين، والوعد بالتشويق، والوعظ بالتخويف، والإنذار بالتشديد، والتفسير بالترقيق، والتبشير بالتوفيق، لأنه كان عالما بصفات المتكلم، واجداً لذوق الكَلِم، فمثل هذا العبد أحسن الناس صوتا بالقرآن.

كما جاء فى الخبر أحسن الناس صوتا بالقرآن من إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله، ومن هذا قيل إذا قرأتم القرآن فابكوا، وإنْ لم تبكوا فتباكوا، ومثل هذا أن القرآن نزل بحُزن، فإذا قرأتموه فتحازنوا، أى أن القرآن لِماَ فيه من التهديد والوعيد والوثائق والعهود يوجب البكاء والحزن، فإن لم تحزنوا وجْداً، ولم تبكوا نفْساً يقيناً فتباكوا وتحازنوا لفظاً لأجل التصديق والإقرار به، فندبهم إلى التحازن فى التلاوة والتباكى ليجتمع هَمّ العبد فى المتلو فيتدبر الكلام، عسى أن يكون قلبه بمعناه فيكون التباكى والتحزين سبباً لجمع هَمّه وفراغ قلبه، لأن المتباكى الصادق مجتمع الهَمّ فيما يبكيه، والحزين حاضر القلب مجموع الفكر مشغول عن سوى مُبكيه. من ذلك ماروينا عن ابن عباس إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه، فبكاء القلب حزنُه وخشيته، أى فإن لم تبكوا بكاء العلماء عن الفهم فتحزن قلوبكم على فقد البكاء، ولْيَخْشَ كيف لم يوجد فيكم وصف أهل العلم. وقد روينا فى غرائب التفسير من معنى قوله تعالى وإنّ من الحجارة لَمَا يتفجر منه الأنهار. قال هى العين الكثيرة البكاء، وإنّ منها لما يشقق فيخرج منه الماء، قال هى العين القليلة البكاء، وإنّ منها لمايهبط من خشية الله، قال هو بكاء القلب من غير دموع عين. وقال ثابت البنانى رأيت فى النوم كأنى أقرأ على رسول الله صلّى الله عليه وسلم القرآن، فلما فرغت قال هذه القراءة فأين البكاء. وكان الحسن يقول والله ما أصبح اليوم عبدٌ يتلو هذا القرآن يؤمن به إلاّ كَثُر حزنه وقلّ فرحه، وكثر بكاؤه وقل ضحكه، وكبر نَصَبُه وشُغله، وقلّت راحته وبطالته.

والناس فى التلاوة على ثلاث مقامات، أعلاهم من شهد أوصاف المتكلم فى كلامه، ويعرف أخلاقه بمعانى خطابه، وهذا مقام العارفين من المقرّبين، ومنهم من يشهد ربه تعالى يناجيه بإلطافه ويخاطبه بإنعامه وإحسانه، فمقام هذا الحياء والتعظيم، وحاله الإصغاء والفهم، وهذا للأبرار من أصحاب اليمين، ومنهم من يرى أنه يناجى ربه عز وجل، فمقامه السؤال والتملق، وحاله الطلب والتعلق، وهذا للمعترفين والمريدين، وهم من خصوص أصحاب اليمين. وينبغى للعبد

أن يشهد فى التلاوة أن مولاه يخاطبه بالكلام، لأنه سبحانه متكلم بكلام نفسه وليس للعبد فى كلامه كلام، وإنما جعل له حركة اللسان بوصفه، وتيسير الذكْر بلسانه، بحكم ربه عز وجل، حداً للعبد ومكاناً له، كما كانت الشجرة وجهة لموسى عليه السلام وكلّمه الله عز وجل منها.

ويقال إن كل حرف من كلام الله عز وجل فى اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف، وأن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يتلوه ما أطاقوه حتى يأتى إسرافيل، وهو ملك اللوح المحفوظ، فيرفعه فيقله بإذن الله عز وجل ورحمته، إذ كان الله تعالى أطاقه ذلك لما استعمله به. وقال جعفر بن محمد الصادق والله لقد تجلّى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكن لايبصرون. وقال أيضا وقد سألوه عن شئ لَحِقَه فى الصلاة حتى خَر مغشياً عليه، فلما سُرِىَ عنه قيل له فى ذلك، فقال مازلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمى لمعاينة قُدرته تعالى. وكذلك الخصوص يرددون الآية بقلوبهم على قلوبهم، ويتحققون بها فى مشاهدتهم بمَدَدٍ من شهيدهم وسيدهم، حتى يستغرقهم الفهم فيغرقون فى بحر العلم، فإن قَصُرت مشاهدة التالى عن هذا المقام فيشهد أنه يناجيه بكلامه، ويتملقه بمناجاته، فإن الله عز وجل إنما خاطبه بلسانه وكلّمه بحركته وصوته، ليفهم عنه بعلمه الذى جُعِلَ له، ويعقل عنه بفهمه الذى قُسِمَ له، حكمةً منه ورحمة، إذ لوتكلم الجبّار عز وجل بوصفه الذى يدركه سمعه لما ثبت للكلام عرش ولاثرىَ، ولتلاشى مابينهما من عظمة سلطانه وسبحات أنواره، فحجب ذلك فى غيب علمه عن العقول، وستر بصنع قدرته عن القلوب، وأظهر للقلوب علوم عقولها، وأشهد للعقول عُرف معقولها بلطفه وحنانه ورحمته وإحسانه.

وبلغنا فى الأخبار السالفة أن ولياًمن أولياء الله عز وجل من الصدّيقين ابتعثه فى الفترة إلى ملك من الجبابرة يدعوه إلى التوحيد وإلى شريعة الأنبياء، فسأله الملك عن أشياء من معانى التوحيد، فجعل الصدّيق يجيبه عنها بما يقرب من فهمه ويدركه عقله، من ضروب الأمثال بما يستعمله الناس بينهم ويتعارفونه عندهم، إلى أن قال له الملك أفرأيت مايأتى به الأنبياء إذا ادّعيت أنه ليس بكلام الناس ولا رأيهم، أمِنْ كلام الله هو؟ قال الحكيم نعم. قال الملك فكيف يطيق الناس حَمْلَه؟ قال الصدّيق إنا رأينا الناس لَمّا أرداوا أن يُفهموا بعض الدواب والطير مايريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، لم يجدوا الدواب والطير تحمل كلامهم، فوضعوا لها من النقر والصفير والزجر ما عرفوا أنها تطيق حمله، فكذلك الناس يعجزون أن

يحملوا كلام الله ككُنهه، بكماله وصفته، فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة، كصوت الزجر والنقر الذى سمعت به الدواب من الناس، ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوأة فى تلك الأصوات من أنْ شَرُف الكلام بشرفها وعَظُم بتعظيمها، فكان الصوت للحكمة جسداً ومسكناً، والحكمة للصوت نفْسا وروحا، فكما أن أجساد البشر تُكْرَم وتعز لمكان الروح التى فيها، كذلك أصوات الكلام تُشَرَّف وتُكْرَم للحكمة التى فيها، والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم فى الحق والباطل، وهو القاضى العادل والشاهد المرتَضَى، يأمر وينهى، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدّام كلام الحكمة، كمالا يستطيع الظل أن يقوم قدّام شعاع الشمس، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون من شعاع الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم، فالكلام للملك المحجوب، الغائب وجهه، الشاهد أمره، كالشمس الغزيرة الظاهرة، مكنونٌ عنصرها، وكالنجوم الزاهرة التى قد يهتدى بها من لا يقع على سرّها، فالكلام أعظم وأشرف من ذلك هو مفتاح الخزائن النفسية، وباب المنازل العالية، ومراقى الدرجات الشريفة، وشراب الحياة الذى مَنْ شرب منه لم يمت، ودواء الأسقام التى من سُقى منه لم يسقم، إذا لبسه لم يتسلّح به أبدى عورته، وإذا تسلّح به غير أهله لم يخرج إلاّ منهم. وقد نقلت هذا نقلاً من كلام الصدّيق الحكيم الذى خاطب به الملك فاستجاب له بإذن الله عز وجل، فهذا وصف كلام الله عز وجل الذى جعله الله لنا آية وعبرة، ونعمة علينا ورحمة، فانظر إلى الحكيم كيف جعل عقول البشر فى فهم كلام الله العظيم بمنزلة فهم البهائم والطير بالنقر والصفير إلى عقول البشر، وجعل النقر والصفير والإفهام من الناس للأنعام والهوام، مثلاً لما أفهم الله تعالى به الأنام من معانى كلامه الجليل، بما ألهم به من الكلام. إن ربى لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم، فهذه قدرة لطيفة من قدرته التى لا تتناهى، وحكمة محكمة من حِكَمه التى لا تُضاهَى، إنه حكيم عليم.

ثم ليشهد العبد أنه مقصود بجميع القرآن الكريم من فاتحته إلى خاتمته، مرادٌ مَعْنىٌ به، له ضُرِبَت الأمثال به، وفيه جميع نِكْره وأوصافه، لأن اللّه سبحانه وتعالى لما تكلّم بهذا الكلام وخاطب به المؤمنين كان هو واجدهم، وكان حاضراً معهم، وقد سوّى اللّه عز وجل بين المؤمنين فى تنزيل القرآن عليهم وبين النبى صلى اللّه عليه وسلم بمعنى من المعانى، فقال واذكروا نعمة اللّه عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يَعِظُكم به، كما قال لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه

ذكركم، وكذلك قال وأنزلنا إليك الذكْر لتبيّن للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون، وقال كذلك يضرب الله للناس أمثالهم، يعنى صفاتهم، وقال ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات، كما قال ولقد أنزلنا إليك آيات بينات، وقال عز وجل واتّبِعْ ما يُوحى إليك واصبرْ، ثم قال اتّبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم، وقال فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك، غير أنه سبحانه عَمّ الجملة بالبصائر والبيان، وخص بالهدى والرحمة أولى التقى والإيمان، فمن ذلك قوله عز وجل هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، فالموقنون هم المتقون، والمهديون هو المرحومون.

وقد أُمرنا بطلب فهم القرآن كما أُمرنا بتلاوته. وروينا عن نبينا صلى اللّه عليه وسلم أنه قال أقرؤا القرآن والتمسوا غرائبه، وقال ابن مسعود من أراد علم الأولين والآخرين فلْيثوّر القرآن، ومن حديث علىّ رضى الله عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم والذى بعثنى بالحق نبياً لتفترق أمتى على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة، كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ ما كان قبلكم، ونبأ ما يأتى بعدكم، وحُكم ما بينكم، وبيّن مَنْ خالفه من الجبابرة قَصَمه اللّه، ومن ابتغى العلم من غيره أضله اللّه، وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع، عصمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يعوج فيقام، ولا يزيغ فيستقيم، ولا تنقضى عجائبه، ولا يخلقه كثرة الرد، هو الذى سمعته الجن فلما قضى ولّوا الى قومهم منذرين، فقالوا يا قومنا إنّا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد، من قال به صَدَق، ومن عمل به أُجر، ومن تمسك به هُدِىَ إلى صراط مستقيم. وروينا معناه فى حديث حذيفة لما أخبره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده، قال فقلت يا رسول اللّه فما تأمرنى إنْ أدركت ذاك، فقال تعلّم كتاب اللّه عز وجل واعمل بما فيه، فهو المخرج من ذلك. قال فأعدت عليه فقال تعلّم كتاب اللّه واعمل بما فيه ففيه النجاة ثلاثاً. وعن علىّ رضى اللّه عنه قال ما أسرّ إلىّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شيأً كتمه الناس إلاّ أن يؤتِى اللّه عبدا فهما فى كتابه. وعنه رضى اللّه عنه أنه قال ومن فهم فسّر جُمَل العلم. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما وغيره فى قوله عز وجل ومَنْ يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، قال الفهم فى كتاب اللّه عز وجل. وقال أحسن القائلين ففهمّناها سليمان وكلاً آتيناحُكماً وعلما، فرفَع الفهم مقاما فوق الحُكْم والعلم، وأضافه إليه للتخصيص، وجعله مقاما عاما فيهما، فإذا فهم العبد الكلام وعامل به المولى تحقّق بما يقول، وكان من أصحابه ولم يكن حاكيا لقائله، مثل أن يتلو منه إنى أخاف

إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم، ومثل أن يقول عليك توكلنا وإليك أنبنا، ومثل قوله ولنصبرنّ على ما آذيتمونا، فيكون هو الخائف لليوم العظيم، ويكون هو المتوكل المنيب، وهو الصابر على الأذى متوكل على المولى، ولا يكون مخبرا عن قائل قاله، فلا يجد حلاوة ذلك ولا ميراثه، فإذا كان هو كذلك وجد حلاوة التلاوة وتحقق جزء الولاية، وكذلك إذا تلا الآى المذموم أهلها المقوت فاعلها، مثل قوله تعالى وهم فى غفلة معرضون، وقوله فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ومثل قوله عز وجل ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، فما أقبح من يعيب ذلك وهو من أهله، وما أعظم أن يذم أهل ذلك وهو بوصفه، فهذا من حجج القرآن عليه، فلا يجد مع ذلك حلاوة المناجاة ولا يسمع خطاب المناجى، لأن وصفه المذموم قد حجبه، وهواه المردى عن حقيقة الفهم قد حرمه، ولأن قسوة قلبه عن الفهم صرفه وكذّبه فى حاله عن البيان وأخرسه، فإذا كان هو المتيقظ المقبل فهو التائب الصادق، سمع فصل الخطاب ونظر إلى الداعى وله استجاب، وقد اشترط اللّه عز وجل للإنابة التبصرة وحضور القلب للتذكرة، فقال عز وجل تبصرةً وذكرى لكل عبدٍ منيب، وقال وما يتذكر إلاّ من ينيب، وقال عز وجل إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد اللّه ولا ينقضون الميثاق، فالاستقامة على التوبة من الوفاء بالعهد، وتعدى الحدود من نقض الميثاق وقلة الصدق، والإنابة هى التوبة والإقبال على اللّه عز وجل، والألباب هى العقول الزاكية والقلوب الطاهرة. وينبغى للتالى الخائف الناصح لنفسه وللخلق، السليم القلب، إذا تلا آى الوعد والمدح ومحاسن الوصف ومقامات المقربين، أن لا يشهد نفسه هناك ولا يراها مكانا لذلك، بل يشهد للمؤمنين فيها وينظر إلى الصدّيقين منها سلامةً ونصحاً، فإذا تلا الآى المقوت أهلها، المتهَدد عليها، المذموم وصفها من مقامات الغافلين وأحوال الخاطئين، شهد نفسه هناك وأنه هو المخاطب المقصود بذلك، خوفا منه وشفقا، فبهذه المشاهدة يرجو للخلق ويخاف على نفسه، ومن هذه الملاحظة يسلم قلبه للعباد ويمقت نفسه. وروينا عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه كان يقول اللّهم إنى استغفرك لظلمى وكفرى، قال فقلت يا أمير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر، فتلا قوله إن الإنسان لظلوم كفّار، فإن قُلِبَ هذان المعنيان على عبد حتى يشهد نفسه فى المدح والوصف ويشهد غيره فى الذم والمقت، انقلب قلبه عن وجهة الصادقين، ونكب بقصده عن صراط الخائفين، فهلك وأهلك، لأن من شَهِد البُعْد فى القُرب لُطِف به بالخوف، ومن شهد القرب فى البعد مُكِر به فى الأمن.

وقال بعض العلماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول

اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتلوه على أصحابه، ثم رُفِعْتُ إلى مقامٍ فوقه فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ثم جاء اللّه بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم عز من قائل، فعندها وجدت له نعيما ولذة لا أصبر عنها. وقال عثمان رضى اللّه عنه أو حذيفة لو طهرت القلوبُ لم تشبع من قراءة القرآن. وقال ثابت البنانى كابدتُ القرآن عشرين سنة وتنعّمت به عشرين سنة. وقال بعض علمائنا لكل آية ستون ألف فهم وما بقى من فهمها أكثر. وعن علىّ رضى اللّه عنه لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب. وعن أبى سليمان الدارانى إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال - ونُكر خمس ليال - ولولا أنى أقطع الفكر فيها لما جاوزتها إلى غيرها. وروينا عن بعض السلف أنه بقى فى سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ منها. وحدثنا عن بعض العارفين قال لى فى كل جمعة ختمة، وفى كل شهر ختمة ، وفى كل سنة ختمة، ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد، يعنى ختمة التفهم والمشاهدة. وكان هذا يقول أقمتُ نفسى فى العبودية مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة، وإنما حُجِبَ الخلْق عن فهم كنه الكلام ومعرفة سر المراد لأنه حجبهم عن حقيقة كنه معرفته، وأنه أعطاهم من معرفة الكلام بقدر ما أعطاهم من معرفة المتكلم، إذ بمعانى كلامه تعرف معانى صفاته وأفعاله وأحكامه، ولأن معانى كلامه من معانى أوصافه وأخلاقه فلذلك جاء فيه السهل اللطيف، والشديد العسوف، والمرجو والمخوف، لأن من أوصافه الرحمة واللطف والانتقام والبطش، فلما لم يصلح أن يعرفوه كعلمه بنفسه لم يصلح أن يعلم كنه كلامه إلاّ هو، ويعرف كنه صفاته إلاّ هو، فأعلم الخلق لمعانى كلامه أعرفهم لمعانى الصفات، وأعرف العباد بمعانى الأوصاف والأخلاق وغوامض الأحكام أعرفهم بسرائر الخطاب ووجه الحروف ومعانى باطن الكلام، وأحقهم بذلك أخشاهم له، وأخشاهم له أقربهم منه، وأقربهم منه من خصّه بأثرته وشمله بعنايته، فقد جاء فى الخبر أحسن الناس صوتا بالقرآن من إذا قرأ رأيتَ أنه يخشى اللّه، ولا يخشاه حتى يعرفه، ولا يعرفه حتى يعامله، ولا يعامله حتى يقرّبه، ولا يقرّبه حتى يُعنى به وينظر إليه، فعندها يعرف سر الخطاب ويطّلع على باطن الكتاب، فإذا سجد العبد سجود القرآن فليدعُ فى سجدته بمعانى الآية من الخير، وليستعذ من معانى شرّها، فإن ذلك فعْل العلماء بالقرآن، واللّه يحب ذلك، ولتلك المعانى أسجدهم له، مثل أن يقرأ قوله عز وجل خَرّوا سُجّداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون، فيقول اللّهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك، ومثل هذا

قوله عز وجل ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا، فليقل اللّهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك، وعلى هذه المعانى ونحوها. وليكن القرآن هو علمه وعمله وذكره ودعاؤه وهمّه وشُغله، فعنه يسأل، وعليه يُثاب، ومقامه منه، وذكره فيه، وأحواله فيه، مجموعٌ له ذلك كله فيه، فبكلامه عرفه العارفون، وبمخاطبته شهد أوصافه الموقنون، فعلومهم من كلامه، ومواجيدهم عن علومهم، ومشاهدتهم عن معانى أوصافه، وكلامهم عن مشاهدتهم، لأن ضروب الكلام عن اللّه هى معانى الصفات، فمنه كلام راضٍ، ومنه كلام غضبان، ومنه كلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر، وحنّان متعطف، فإذا كان العبد من أهل العلم باللّه، والفهم عنه، والسمع من اللّه عز وجل والمشاهدة له، شهد ما غاب عن غيره وأبصر ما عمى عنه سواه، وقد قال سبحانه وتعالى فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون، وقال عز وجل فاعتبروا يا أولى الأبصار معناه فى الفهم أعبُروا إلىّ فقد أبصرتم، فالتاء قد تكون بمعنى تاء التفعل تدخل للتحقيق، والوصول بالوصف والمبالغة فى الفعل، فلمّا أعطاهم الأيدى والأبصار عبروا بقواهم إلى ما أبصروا، ففروا إلى اللّه عز وجل من الخلْق حين ذكروه بما خلق، فخرجوا على معيار حُسن الابتلاء، ولم يُنقصهم البلاء شيأ، فكانوا كما أخبروا، كالذى أمر فى قوله عز وجل – ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون، ففروا إلى اللّه – ثم قال – ولا تجعلوا مع اللّه إلها آخر – فكانوا هم الموحدين المخلصين له، وكان هو المنفرد المستخلص لهم، ثم جاوزوا التذكر بالأشياء إليه، فذكروه عنده به، فحينئذ هربوا إليه منه حين هللوه به، فلم يتألهوا إلى ما سواه كما لم يعبدوا إلا إيّاه. وكذلك رأيتها فى مصحف عبد اللّه ففروا إلى اللّه منه، إنى لكم منه نذير مبين . وفى الخبر عن ابن مسعود وبعض الرواة برفعه، وقد روينا مسندا من طريق، وهم خصوص العارفين من المحبين والخالصين اطّلعوا على السر وأُوقفوا على الخبر فكانوا مقربين شاهدين أن القرآن ظهراً وبطنا وحدّا ومطّلعا، فنقول فظهره لأهل العربية، وباطنه لأهل اليقين، وَحَدّه لأهل الظاهر ، ومطّلعه لأهل الأشراف وهم العارفون المحبون والخائفون ، اطّلعوا على لطف المُطّلع بعد أن خافوا هول المَطّلع ، فأودعوا السر عند مقام أمين ، وأُوقفوا على الخبر فى حال مكين ، فكانوا لديه مقرّبين إذ كانوا به شاهدين. وقال النبى صلى اللّه عليه وسلم يرى الشاهد ما لا يرى الغائب، فمن حضر شهد، ومن شهد وجد، ومن وجد وَحّد، ومن وحّد عزّز، ومن غاب عمى، ومن عمى فقد، ومن فقد نسى، ومن نسى فقد نُسى. وقد قال اللّه عز وجل وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى، أى تركتها فلم تعبأ بها ولم تنظر إليها، وهكذا اليوم تُترك فلا يُنظر إليك برحمة ولا تُكلّم بلطف ولا تُزلّف بقُرب.